

إشكالية العمل الثقافي

الأستاذ عطاء الله يعقوبي - جامعة الأغواط - الجزائر

المقدمة:

يرتكز اهتمامنا في هذا الطرح، على محاولة إبراز أهمية العمل الثقافي كأداة فعالة في تحقيق التنشئة الشاملة داخل المجتمع، والمساهمة في تطويره وازدهاره من خلال تناول أهم القواعد الأساسية للعمل الثقافي الناجح، والكشف على أهم المشكلات التي تواجه العمل الثقافي. و أقصد هنا بمصطلح العمل ذلك الفكر الثقافي أو الدراسات الثقافية، الذي يجسد حدود المخيلة الاجتماعية بما في ذلك العلوم بفروعها الطبيعية، والاجتماعية والإنسانية.

وتحديدا العمل الثقافي يتجاوز شخص المفكر إلى الحركات والمدارس والاتجاهات الفكرية التي تمثل عوالم الدين والسياسة والعلم، فالمناخ الثقافي العام - السائد الآن - والأثر الطاعني لوسائل الإعلام، والغزو الثقافي والقيود التي تفرضها الدولة على التفكير لا تحدد ما نستطيع أن نفكر فيه ونؤمن به.

لذلك فإن العمل الثقافي يعد سياقاً تاريخياً يقرر حدود الفكر الممكن التفكير فيه فلا يمكن لنا أن نقوم بعمل ثقافي خارج السياق التاريخي والمرحلة التي يمر بها.

وإذا تداخلت عوالم الفكر الثلاث: الدين، السياسة، العلم نستطيع أن نكشف القوى المحركة للفكر بإرجاعها إلى البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها الأفكار

والتطلعات والتواريخ والأيدولوجيات (خلدون حسن النقيب، يناير 2000، ص8). وعلى هذا النحو يتحدد لنا تساؤلنا المحوري أو العام وهو كآآي:

♦ ما هي أهم المشكلات التي تواجه تطور العمل الثقافي في المجتمع الجزائري؟ وما هي الحلول المقترحة لإنجاح العمل الثقافي، في ظل ما تفرضه العولمة الثقافية على الساحة الفكرية؟

1/ ماهية العمل الثقافي:

إشكالية العمل الثقافي كل الإنجازات العلمية التي تظهر في مجمل المعارف و الأعمال الإبداعية في العلم، الفلسفة، الفن، الآداب... التي تراعي مقتضى الحال. فيجب أن يكون العمل الثقافي متصلا بالواقع و منبثقا منه، لاستخدامه كأداة لتنظيم المكونات الثقافية (الحياة الإبداعية، الحياة الفكرية)

فقد تتوالى على المجتمع فترات اتباعية و أخرى إبداعية، في الحالة الأولى الاتباعية يكون الوعي العمومي مساويا للبنية الاجتماعية لأن الثقافة في حد ذاتها تعتبر نتيجة مباشرة للنظام العام و البني الاجتماعي عندئذ يكون العمل الثقافي يمثل الثقافة السائدة بين مختلف فئات المجتمع أما في الحالة الثانية الإبداعية تكتسي التحلي بالموضوعية العلمية والمتمثلة في هيمنة العقل على الأعمال الثقافية الموروثة والمستوردة والتحول منها والتأهب لتأسيس عمل ثقافي جديد(العروي عبد الله، 1999، ص27)

لذلك يعتبر العمل الثقافي متحول باستمرار، والثابت فيه يساهم في تحديد قيم أفراد المجتمع، ويؤثر بالتالي على اتجاهاتهم نحو مختلف المواقف الاجتماعية.

2/ السياق التاريخي لتطور العمل الثقافي:

تطورت وظائف الثقافة ومظاهرها منذ القدم إلى عصرنا هذا: حيث مرت بمحطات تاريخية يمكن حصرها في مراحل تطويرية وهو ما يمكن توضيحه كالآتي:

أ/ مرحلة الثقافة الاجتماعية: وتتمثل المرحلة الأولى في التفاعلات البشرية البدائية، رغبة في التفاعل والتعامل والاتصال من خلال مختلف إشارات التواصل ومن خلال اللغات التي كانت مستعملة.

ب/ مرحلة ثقافة المنفعة: وتتمثل في اكتشاف طرق مريحة ومفيدة لتلبية الحاجات المختلفة والضرورية التي تتميز بطابعها المنفعي مثل طرق كسب العيش والرغبة في البقاء.

ج/ مرحلة ثقافة الجمال: وتتمثل في الإقبال على الألبسة المميزة وبعض الحلي والقيام بالأوشام على الوجه. كل هذا العمل هو رغبة في إبراز جمال الأفراد، هي مرحلة قديمة من تطور الثقافة في المجتمعات الإنسانية.

د/ مرحلة ثقافة استعمال الآلة: تتميز هذه المرحلة بتطور استعمال مختلف الآلات في شتى القطاعات والعمل لغرض تلبية الحاجات المتنوعة والمتزايدة.

هـ/ مرحلة الثقافة التكنولوجية: وهي المرحلة الأخيرة التي تتميز بالتقدم والرقى للعمل الثقافي، باستعمال المفرط للتكنولوجيا في كل المجالات التعليم، التربية، الصحة، الاتصال ... حيث عرف هذا العصر بعصر التكنولوجيا وهي في تطور مستمر حتى أصبحت تتحكم في الفرد بعد أن كان الفرد يتحكم فيها. (غيث بوفلجة، 2005، ص14)

وعليه فإن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يعني لنا أن هناك سيرورة للعمل الثقافي أو الممارسات الثقافية للمرحلة السابقة لها نتيجة لعملية معرفية تراكمية مستمرة ومتداخلة في آن واحد، لكن من الذي يجعل العمل الثقافي ناجحاً؟

3/ أهمية الدراسات الثقافية في المجتمعات المعاصرة:

بعدما كانت الدراسات الثقافية شبه منحصرة في تاريخ، الحضارات القديمة الفنون عاد الاهتمام في السنوات الأخيرة بموضوع الثقافة مع توسيع مجالات الاهتمام بها لتشمل مجموعة من المجالات السلوكية، الاجتماعية، السياسية وأهمية العمل الثقافي لا تقتصر على تصوير الواقع كما هو بل يتعداه إلى تغييره ومحاولة إصلاحه عن طريق تغيير الوعي أو عن طريق تشكيل وعي جديد (بركات حليم ، 2004، ص360).

وقد ظهرت العولمة التي ساهمت في إيجاد تجمعات اقتصادية كبيرة في مستوى القارات، وقد تجاوزتها أحياناً، وهو ما عزز الاتجاه نحو دراسة التنوع الثقافي في المجتمعات المعاصرة.

هناك اهتمام متزايد بموضوع الاتصال ومحاولة فهم الآخر من خلال فهم دوافع سلوكياته وتصرفاته وقيمه واتجاهاته وبدون ذلك لا يكون الفهم كاملاً، ولا الاتصال ناجحاً وفعالاً، إن كانت دوافع بعض السلوكيات واضحة وجلية إلا أنه لا يمكن الفهم السليم والكامل لدوافع أفراد آخرين وخاصة الأقليات الثقافية إلا من خلال فهم ثقافتهم وقيمهم ومعتقداتهم.

ومما زاد في أهمية الدراسات الثقافية موجة الاهتمام بالديمقراطية وحقوق الإنسان خاصة فيما يتعلق بالأقليات الثقافية، وقد تزايد تفاعل الثقافات نتيجة لحركة الحراك الاجتماعي، كإقبال الناس على الهجرة إلى مناطق مختلفة ذات ثقافات متباينة (غيات بوفلجة: مرجع سابق، ص16)

وهكذا أصبح من المعتاد ومصادفة أفراد أو العيش بجانبهم أو العمل معهم وتشغيلهم حيث ينظر إليهم على أنهم أقليات عرقية وثقافية، لهم مزاجهم وأنماطهم الخاصة في اللباس والمعاملات تربطهم علاقات دينية أو قبلية أو وطنية.

كل هذه العوالم أدت إلى الحاجة لفهم هؤلاء الأفراد إذ أن الفشل في التعامل معهم يؤدي إلى مجموعة من المشاكل قد تؤدي إلى الصراع الثقافي والعنف مما يحتم علينا إيجاد دراسات علمية لموضوع الثقافة.

لا غرابة إذن أن نقر على أن أحد عوالم ظهور العنف والإجرام في العالم هو الفشل في فهم الآخر والثقافات الأخرى ، وما تتميز به من خصائص وما تحمله من هموم وطموحات واحباطات وهو ما يتطلب العناية القصوى بالدراسات الثقافية (المرجع السابق، ص17). وهكذا تعتبر الثقافة بالنسبة للإنسان بمثابة موجّهات وضوابط لمعايير السلوك حيث يتحرك إزاء الرموز والقيم والمعاني لثقافة المجتمع الذي ينتمون إليه وبين العناصر الثقافية الفرعية أو الهامشية للمجتمع الذي يقيمون فيه بنوع من القلق أو الاضطراب الثقافي نتيجة للاختلاف باختلاف الثقافات وتباينها مما يؤدي معظم الحالات إلى الانهيار الثقافي للمجتمع الذي يتعامل معه يوميا نتيجة لضغوط المحيط الخارجي.

4./ واقع العمل الثقافي في الجزائر:

مما يلاحظه عن الثقافة الجزائرية في السنوات الأخيرة، وخصوصا بعد أن عاد الوضع الأمني. هو عودة العمل الثقافي للواجهة من جديد وغياب شبه كلي طوال عشرية بأكملها. هذه العودة التي تتميز بكثير من الاختلاف والجدّة من حيث تركيبها البنيوية، ومن حيث الأسئلة التي يشتغل عليها المثقفين الجزائريين وكذلك من حيث نظرة المثقف الجزائري للعمل الثقافي حيث صار يعتمد على المجال الثقافي بعد أن كان أسير المجال السياسي الذي ظل مهيمنا بصورة مختلفة على الحقل الثقافي فيما يلاحظ الآن هو الثقافة صارت تقصد لذاها بعيدا من التوظيف السياسي والأيدلوجي من طرف رجال السياسة.

ونظرا لهذا الوضع نحاول الاقتراب من هذا الواقع من خلال نظرة سوسيولوجية حول الثقافة الجزائرية، لأن أهم الدراسات السوسيولوجية التي كتبت حول الثقافة الجزائرية في نهاية الثمانينات كتابات كل من: علي الكتر، مصطفى الأشرف، عبد القادر جخلول، عمار بلحسن.. فإن سوسيولوجيا الثقافة في زمن التعددية العربية هي موضوع مسكون عنه بنسبة كبيرة وهذا ما يخلق صعوبة كبيرة في محاولة حوصلة التوجيهات الجديدة وميكانيزمات العمل الثقافي.

فالمتموفر في الدراسات لا يتعدى حسب اطلاعي بعض الكتابات الصحفية الاستعجالية والخاطفة، إضافة إلى هذا قلة الدراسات الأكاديمية التي قام بها طلبة الليسانس والماجستير في بعض أقسام علم الاجتماع الثقافي، والتي في معظمها تعود إلى الماضي أكثر مما تستنطق الحاضر بالإضافة إلى بعض أطروحات الدكتوراة التي لم ينتشر معظمها كما أنها لم تعرب.

إذا ونتيجة لكل الأسباب السابقة نجد أنفسنا ونحن نحاول الاقتراب السوسيولوجي من عهد التعددية في جانبه الثقافي مضطرين فقط لإعطاء بعض الملاحظات التي استوفيناها في قراءتنا السابقة واستطلاعاتنا الصحفية. واحتكاكنا بالنسبة المثقفة والعمل الثقافي يمر بأزمة إذ أنه يتميز بنوع من الاختلاف وكثير من التطلعات أوجدها الأزمة المتعددة الجوانب التي يعانيها المجتمع الجزائري أزمة أمنية: إقتصادية , إجتماعية , وثقافية ... وهذه الثقافة تتميز بصفات لم تكن موجودة أثناء الأحادية السياسية الفكرية.

ما يمكن ملاحظة لواقع العمل الثقافي في الجزائر تكتل النخبة المثقفة الذي يعطي لنا الرغبة القوية للمثقفين في النشاط المستقل و الجماعي في إطار المجتمع المدني من الضغوطات و طرح القضايا التي تمهمهم بالشكل الذي يرونه منافيا، و الدفاع عن قضاياهم مثل: الجاحظية. و هناك نوع آخر غير معلن عنه كتجمع و وقوف بعض المثقفين ذوي التوجهات المشتركة و خلق هيئة أو مؤسسة مثل: التوجه العروبي الإسلامي للدكتور طالب الإبراهيمي، و التوجه اليساري مثل: رشيد بوجدر.

من خلال تعميق الملاحظة و تدقيق النظر يتضح تجاوز بعض الأسماء اللامعة القديمة. كيف ذلك؟ حيث نرى أن هذه الأسماء تنصدر ساحة المشهد الثقافي الجزائري مثل: طاهر وطار، أمين الزاوي، محمد الميلي... لكن نجد في المقابل السعيد بوطاجين، الحبيب أيوب، محمد بغداد... الذين صاروا يصنعون الحدث بإنتاجهم و تصوراتهم بالواقع الثقافي يريدونه مغايرا لما كان عليه، واقع ثقافي منفتح ومتعدد.

كما أن الظروف الأمنية السيئة دفعت الكثير إلى الهجرة نحو أوروبا والمشرق العربي "الثقافة المهاجرة" مثل ياسمينه خضراء، بوعلام صنصال، أنور بن مالك،

أحلام مستغامي... فنحن نلاحظ نوع من القطيعة بين الجيلين، محاول الجيل الأخير الأخذ من الأول وتجاوزه.

رؤيتنا لواقع العمل الثقافي في الجزائر تدفعنا إلى الوقوف والتأمل في تطور مجال النشر. لهذا فإن المتتبع لهذا العمل الثقافي سيجده في تقدم مستمر، بالرغم أن الدولة لم تعد الوصي الأول لنشر والمشراف على الثقافة وتخليها النسبي عن نشر وتوزيع الكتاب، قد برزت طرق مبتكرة من طرف قطاع نشر خاص لتوزيع الكتب بشكل يحاول تجاوز نقائص الماضي بالإضافة إلى تكتل مراكز النشر التي نظمت نفسها في إطار جمعية الناشرين الجزائريين، وتحولت إلى نقابة قوية تدافع عن مصالح أعضائها وتحاول أن تخلق مجالا تساعد على حركية الكتاب باللغتين العربية والفرنسية في الداخل والخارج وبهذا يكون الكتاب تحسن من ناحية الشكل والإخراج والطباعة مقارنة بما كان عليه في السابق، هذا إضافة إلى عودة المعرض الدولي للكتاب بالجزائر بشكل أكثر تنظيما وانتظاما بعد طول غياب .

كما تم خلق منابر جديدة للكتاب من خلال بعض المجالات الثقافية الفكرية التي ظهرت بالوجود، والدوريات التي تصدرها بعض الأقسام بالجامعة الجزائرية ومراكز البحث وخصوصا ما تعلق منها بالأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

جاءت تجربة الجزائر عاصمة الثقافة العربية كبرهان بأن العمل الثقافي له مكانته الإستراتيجية في واقع الأمة العربية ككل و أن العمل يمكنه أن يكون مساهما واقعيا بالحياة العامة .

ولقد لاحظنا منذ بداية التظاهرة الثقافية أن الفرصة مواتية لتأصيل الحركة الثقافية وهو ما تحقق فعلا من خلال النشاطات اليومية عبر المعارض المسارح

السينما أو في ساحات مراكز النشر التي ازدهرت وأنتجت مكتبة يكون عدد كتبها أكبر من عدد الكتب التي طبعت خلال العشريتين الماضيتين، حتى حركة الترجمة نشطت بطريقة مذهلة إلى درجة أم دار نشر واحدة ترجمة في السنة الماضية أكثر من مأتي كتاب .

رغم أن مفهوم الجزائر عاصمة الثقافة العربية قد أخذ خلفيات وأبعاد إستراتيجية مختلفة وخفية . إلا أن الجزائر تمكنت من وضع العمل الثقافي في السياق العام للحياة الأمة وأسست للفعل الثقافي كي يكون رافدا هاما من روافد الاقتصاد ومساهما فاعلا في دفع دواليب التنمية .

وعلى العموم هناك مؤشرا ايجابيا لبروز دور مستقبلي متميز للعمل الثقافي والمتقنين في الجزائر لتقسيم الصورة الثقافية للبلاد، هذه المؤشرات قد بدأت تتجلى بعد التنظيم العلاقة بين المجال السياسي والمجال الثقافي وعودة الاستقرار والأمن، فالعمل الثقافي كفيل بكسر الحلقة المفرغة التي تعمل على إعادة إنتاج ثقافة التخلف والتبعية.

5/ القواعد الأساسية للعمل الثقافي:

تمر المجتمعات الإنسانية منذ عقدين من الزمن بتحولات كبرى غيرت من ثوابت الفكر الثقافي وتوجهاته واستراتيجيات التنمية المستدامة عقب هذا انقلاب هائل وثورة عارمة شملت مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. حيث تبلور شكل جديد لنظام دولي لم يتحدد ملامحه بعد ولكنه عبارة عن تحولات ثقافية واجتماعية سريعة وفعالة امتد أثرها في الحياة الاجتماعية للأفراد

أوضاعهم الاجتماعية وثقافتهم وعقيدتهم وقيمهم الاجتماعية، ارتبطت بما يستقبلونه يوميا من وسائل الإعلام العابرة للحدود في ظل غياب العمل الثقافي الناجح، بأنه في نفس الوقت أحد أسس تغيير الواقع. وهذا يعني لنا التغيير لا يمكن أن يكون من خصوصيات المجتمع ومقوماته المحلية. لذا نرى أن المبادئ التي ينطلق منها العمل الثقافي الذي يراهن على تحقيق انتعاش حضاري للمجتمع الجزائري ونأخذ في رأينا النقاط الأساسية:

التركيز على المبادئ والخصوصيات الأساسية للهوية الجزائرية.

السعي والحرص في نفس الوقت على غرس المبادئ بمقومات وخصوصيات الهوية الجزائرية لدى النشء عن طريق وضع برنامج جزائري في جميع مؤسسات التربية .
بناء وخلق الدافع الذاتي الذي يحول الاقتناع بالأفكار إلى أعمال ميدانية وملموسة وبناءة (قاسمي لمياء، ماي 2005، ص16).

● العلم بالوسائل والآليات الموصولة إلى تحقيق الغايات والفصل بين ما هو جائز وما هو غير جائز.

ومن شأن هاته العناصر أن تعمل على نشر ثقافة التعمير والبناء ومعاصرة ثقافة اللامسؤولية والميوعة المنتشرة والمزداة تناسبا يوما بعد يوم، حتى تخرج من قيمة هيمنة الفكر الغربي، وذلك بإبراز التصورات الإسلامية الحقيقية الكفيلة بحسن تنظيم وتسيير الحياة العامة وضبط العلاقات بين الأمم والشعوب وإبراز قدرة الإسلام على الفصل في كل النزاعات والخلافات مهما صغر حجمها، بل إبراز قدرة الإسلام على الإجابة عن كل الإشكالات التي تعترض الأمة في حياتها الاليومية سواء ما تعلق منها بالاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو

التعليم و الإعلام بل حتى في المسألة الفنية والعلاقات الدولية وغيرها، وفي أدق التفاصيل الحياة اليومية.

وللتذكير غالبا ما ينظر إلى هذه المواقف على أنها متطرفة ورجعية ومتخلفة في آن واحد لا تسير العصر كما ينظر إلى أصحابها على أنهم رجعيون ما..؟؟؟؟؟؟؟؟ إلى غير ذلك من الصفات التي يوصف بها كل ذي ثقافة إسلامية تسعى لأن تجد لنفسها أرضية للإنتشار والتمكن من تحقيق تغير الواقع(المرجع السابق، ص16)

ولنا في هذا أن ننظر لبعض مظاهر الانحرافات الفكرية، بل والديني العقيدية التي تكون وبالا على العمل الثقافي الناجح كيف ذلك؟

ومن خلال غرس أشجار اللغو والابتداع في قرية الجهل الشرية، تسقيها تلك الأمة الجاهلة بخيالاتها وأوهامها حتى تعظم وتنتشر فتحجب شمس الدين الصحيح وتغطي بذور العقول النيرة، وفي ظلام هذه الأشجار تعيش الأمة عيشة حقيرة، هذا بفضل الاغتصاب النفسي برعاية عاطفية قائمة على الخوف نتيجة الاقتناع بالقوة.

لذا يجب أن لا ينفصل العمل الثقافي على إبراز حقائق التاريخ الثقافي الإسلامي كما هو دون تحريف وتغيير والرد على الشبهات والأباطيل التي ألحقت بمجتمعاتنا عبر مراحل زمنية، ومن هنا ينطلق العمل الثقافي من قاعدة أساسية يستند إليها، وهي الديانة الإسلامية التي تكون قادرة على أن تتحدى كل الأطروحات الفكرية والثقافية السائدة البعيدة عن الهوية الثقافية الإسلامية.(المرجع السابق).

وخلص القول :

نستنتج في ضوء ما سبق أن العمل الثقافي في أغلب الأحيان ينطلق من فحوصات المجتمع ومقوماته. فهو متقلبا على الدوام، بفعل التدفق المستمر للثقافات التي تشكل مجموعة من التظاهرات المستعارة والقيم والمعتقدات الدخيلة. أمر الذي أدى صراعات وثقافات ثقافية في المجتمع الجزائري، ذلك أنه لم يتمكن من استرجاع الثقافة التقليدية الأصيلة، ولم يستطع التخلص بما أتى به الغزو الثقافي وأنه من الضروري أن يبرهن الإنسان في هذا العالم الذي يتطور تطورا سريعا وتتصل فيه المجتمعات بعضها ببعض اتصالا متزايدا، على انفتاح العقل وعلى ترقب متواصل للابتكارات غير أنه لم يقيم علميا بعد الدليل على أن ما يبتكر صالح للجميع بالضرورة وذلك لسبب بسيط هو أن الشعوب والثقافات تختلف من حيث بنيتها ومن حيث ماضيها.

فلا يمكن للثقافة أن تكون ايجابية إلا إذا تمت في الاتجاهين أو بالأحرى في اتجاهات مختلفة في آن واحد. لأن ما ينبغي أن يميز الوحدة الإنسانية هو أولا وقبل كل شيء تنوعها الثقافي وقدرتها على ابتكار مناهج روحية ومادية وذلك انطلاقا دائما من بنية خاصة. إضافة إلى ذلك فإن الإنسان ثمرة الثقافة ومنتجها فالشعب الذي يتعرض دائما لهجوميات الحضارات المتكررة دون مقاومة شعب محكوم عليه مسبقا بالاضمحلال والاعتراب الثقافي(مغربي عبد الغني، 2006، ص204).

إن مشكلة العمل الثقافي في مجتمعاتنا إنما تتمثل أساسا في انحراف إدارة العمل الثقافي عن جوهر الثقافة الإسلامية إلى المظاهر التي أصبحت مظاهر

جوفاء متمسمة بقوة وطأة العولمة مقابل وتراجع دور الهيئات الثقافية في تعزيز القيم الفكرية والثقافية والاجتماعية.

♦ المراجع

- ♦ مغربي عبد الغني: الفكر السوسيولوجي عند ابن خلدون، (تر: محمد اثيرين دالي حسين)، دار القبة للنشر، الجزائر، 2006، ص204.
- ♦ قاسمي لمياء: القواعد الأساسية للعمل الثقافي الناجح، مقال من جريدة السفير الاسبوعية، الجزائر، العدد 258، ماي 2005، ص16
- ♦ العروي عبد الله: الأيدلوجية العربية ، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء ط2، 1999، ص27.
- ♦ غيات بوفلحة: تحولات ثقافية، دار الهدى وهران، 2005، ص14.
- ♦ بركات حليم: المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 8، 2004، ص360.



